

الفصل العاشر

الهجرة والوحدة الأثنولوجية في العالم العربي

ينتظم العالم العربي في صورته الراهنة ، مجموعة سكانية متجانسة ، تشغل مساحة شاسعة تقرب من مساحة الولايات المتحدة الأمريكية ، غير أنها موزعة على وحدات سياسية متعددة لعل في مقدمتها :

- ١ - الجمهورية العربية المتحدة بأقليمها الشمالى (سوريا) والجنوبى (مصر)
ويبلغ تعداد سكانها حوالى ثمان وعشرين مليوناً
- ٢ - الجمهورية السودانية ويبلغ عدد سكانها ثمانية ملايين وسبعمائة وسبعين ألفاً
- ٣ - الجمهورية العراقية ، ، ، خمسة ملايين ومائة ألف
- ٤ - المملكة اليمنية المتوكلية ، ، ، أربعة ملايين ونصف
- ٥ - الليبية المتحدة ، ، ، مليون ومائة وخمسون ألفاً
- ٦ - الأردننية الهاشمية ، ، ، مليون وثلاثمائة وثلاثون ألفاً
- ٧ - العربية السعودية ، ، ، سبعة ملايين
- ٨ - الجمهورية التونسية ، ، ، أربعة ملايين
- ٩ - المملكة المغربية ، ، ، عشرة ملايين
- ١٠ - الجمهورية اللبنانية ، ، ، مليون وثلاثمائة وعشرون ألفاً
- ١١ - محميات عدن ، ، ، ثلاثمائة وسبعين ألفاً
- ١٢ - حضرموت ، ، ، مائة وعشرون ألفاً
- ١٣ - سلطنة عمان ، ، ، خمسمائة وخمسون ألفاً
- ١٤ - إمارة قطر ، ، ، عشرون ألفاً

هذه الاحصائيات تقديرية ، ولمعرفة الأعداد بالضبط يمكن الرجوع إلى المجموعة التى أصدرتها الأمم المتحدة عام ١٩٥٤ .

- ١٥ - إمارة البحرين مائة وعشرون ألفاً
١٦ - الكويت مائة وخمسون ألفاً
١٧ - الجزائر تسعة ملايين ومائة وأربعون ألفاً
١٨ - فلسطين المحتلة
١٩ - مستعمرة عدن مائة ألف

٢٠ - أمارات ساحل الصلح البحرى والمناطق المحايدة على الخليج العربى
ويبلغ عدد سكانه بضعة آلاف

ولعل نعت الشعوب السالفة الذكر ، بصفة العروبة ، مما يوحى بالوحدة
الاثنولوجية بين سكان هذه الأقطار السياسية ، والواقع أن هذه الوحدة
قد تحققت بفضل ما يربط بين سكان هذه الدول من اتصال دائم واختلاط
مستمر عن طريق الهجرات المتتالية للقبائل العربية ، الأمر الذى أدى إلى
انصهار السكان الأصليين والعرب المستوطنين انصهاراً انتهى إلى ما يشبه
الوحدة الجنسية لهذه الشعوب ، فإذا أضفنا إلى ذلك عامل الجوار والامتداد
الطبيعى الجغرافى ، وعامل وحدة اللغة وهى العربية التى كتب لها الغلبة على
اللغات المحلية والإقليمية الجزئية ، بالرغم من احتضانها لأقليات كردية
وأرمنية وبربرية ^(١) ، وتمائلها فى العامل الايكولوجى الاكويمنى العمرانى
من حيث استجابتها لظروف المحيط البيئى ، والارتفاع بالموارد الطبيعى ،

(١) لمعرفة الأقليات السلافية فى البلاد العربية يرجع إلى كتاب

Social Forces in the Middle East, The Minorities in the
Political Process.

على أن الأقليات الجنسية أو القومية والدينية فى مجموعها لا تعدو ١٢ ٪ من مجموع السكان
السكلى ، وكثير منها دخيل طارئ ، وهى أقليات هامشية فى توزيعها حيث تظلل المنطقة متجانسة
من الناحية الواقعية ، واستغلال الطائفية كان دائماً مقروناً بالأساليب الاستعمارية لتفتيت الحركات
القومية والوحدة العربية .

راجع كتاب الجغرافيا السياسية . للدكاترة . دولت صادق ومحمد غلاب والدناصورى ص ١٨ :

كتاب فيشر Fisher, W.B., The Middel East, London, 1950.

فضلا عن اشتراكها في التاريخ الحضارى والأساسى الثقافى ، الأمر الذى تستند إليه أصالة حضارة كل من مصر القديمة والحضارة السومرية وتجانس مظاهرها سواء فى أشكال الحياة البدوية أو الحياة الزراعية وذلك بالإضافة إلى كونها مهد الرسالات الدينية والعقائد المنزلة المعروفة باسم الديانات السماوية التى تقوم على التوحيد والمحبة والإخاء ، وتنطوى على المبادئ الأساسية للتنظيم والتكامل والتكافل الاجتماعى للشعب العربى ، بل وترتكز أصلا على نبذ التفاوت العنصرى ، والتأخى بصرف النظر عن التباين اللوى أو اللغوى أو المذهبى ، فبادئ الحياء الإيجابى والتعايش السلمى والتكافل الطبقي والتكامل التعاونى تعتبر مبادئ أصلية فى التراث الثقافى للشعب العربى . وهذا بالإضافة إلى الدور الكفاحى فى سبيل التحرر من النير الاستعمارى والظلم السياسى الذى حاق بأجزاء الوطن العربى .

وإلى جانب كل ما تقدم ، فإن الملاحظ أن مستويات هذا الشعب قد امتازت فى جملتها بالظاهرة المعروفة عند العلماء الانثروبولوجيين بظاهرة التمرکز الحضارى Ethnocentrism ، أو التمسك بمقدسات وعادات وتقاليد الجماعة والالتفاف حول مقومات حضارتها ، ولذلك فإن هذا المجتمع قد زود بقدرة عجيبة على صهر التيارات الحضارية الراحفة إليه تمثلها بدرجات متفاوتة ، دون أن تتأثر مقوماته الحضارية الأصلية بالعناصر الغريبة الدخيلة عليه ، ولهذا فإنه فى كل مراحل الانتقاضات التقدمية لا يلجأ إلى المبادئ المستوردة ، وإنما يستعين على تطوير مقوماته بما يلائم أوضاعه ، ويحفظ ذاتيته الحضارية نامية متجددة . وقد حرصت بعض قطاعاته على الخضوع لهذه الخاصية خضوعاً أورثها الجمود وربما هذا هو السر فى أننا نجد تفاوتاً فى القطاعات من الناحية الاجتماعية والثقافية فى كل أرجاء الوطن العربى .

ومع ذلك فقد ظل الطابع الجشطاطى العام Configuration لسكان

هذه المنطقة عربيا في ثقافته ولغته وذوقه وفنه ومثله ، وذلك نتيجة تغذيته المستمرة من منبعه الأصلي ، شبه الجزيرة العربية ، عن طريق موجات من الهجرة المتتابعة في العصور التاريخية المتلاحقة .

ويذكر علماء الجغرافيا في تفسير وتعليل الهجرات البشرية التي أثرت في سكان العالم العربي عدة عوامل من بينها عامل المناخ الذي امتاز بإحداث تذبذبات مناخية في بعض العهود التاريخية ، نتج عنها تعرض بعض هذه الأقاليم لفترات جفاف ، ساءت أثناءها الظروف الاقتصادية والسياسية وتبع ذلك حركات هجرة بشرية من مناطق الجفاف والفقر إلى الأقاليم المعروفة بخصوبتها في فجر التاريخ ، كمنطقة الهلال الخصيب ، ووادي النيل ، ومعنى ذلك أن عامل الطرد من قلب الصحراء المجردة ، قد قابله عامل الجذب الذي كان يغري سكان البادية بالهجرة إلى المناطق الخصبة الغنية ، وكانت هذه الهجرات تستقبلها تلك الأقاليم أحيانا بالسلم وأحيانا تفرض نفسها على السكان الأصليين بالغنف تحت وطأة الظروف المعيشية المصاحبة لها . وآية ذلك أن المناطق المجردة من الجزيرة العربية ظلت تطرد الموجات البشرية إلى أطراف الجزيرة فتكاثف السكان في الأطراف الممتدة حولها كالشام واليمن وعمان ومنها هاجروا إلى السهول الخصبة في العراق وسوريا ووادي النيل والجالا وأرتيريا .

هنا ونحن لا نستطيع أن نغفل العوامل الاجتماعية التي ساعدت أو أسهمت في الهجرات العربية إلى مناطق وقطاعات العالم العربي ، وفي مقدمة تلك العوامل الاجتماعية :

- (أ) انتشار تجارة الرقيق في القبائل العربية حتى صدر الإسلام .
- (ب) اشتغال كثير من القبائل العربية في التجارة ونقل البضائع من شواطئ أطراف شبه الجزيرة العربية إلى الهند وسيلان والبلاد المجاورة لها ، أو نقل بضائع تلك البلاد إلى أفريقيا والشام ومصر ، ومن ثم إلى بعض

الموآء فى شمال أفريقيا أو جنوب أوربا ، وقد ساعد على ذلك جراءة العربى البدوى وميله إلى الرحلة وتحمله مشاق السفر وتعوده البحث عن موطن الرزق ، وألفته للظعن والترحال والبعد عن الموطن الأصلى .

(ح) القحط والفقر والعوز الذى يحيط بقبيلة من القبائل العربية ، يدفعها إلى الهجرة كوسيلة فذة لاحتفاظها بمركزها الاجتماعى بين ظهرانى جيرانها .

(د) الحروب الداخلية بين القبائل ، وغلبة قبيلة على قبيلة أخرى قد تدفعها إلى الهجرة حفظاً لكرامتها أو ذوداً عن العار الذى يصيبها .

(هـ) هذا بالإضافة إلى كثرة السكان فى مناطق لا تفى مراردها الطبيعية بحاجة سكانها الذين كانوا يعتمدون اعتماداً يكاد يكون كلياً على هذه الموارد .

(و) هناك أيضاً عوامل سياسية خارج نطاق الجزيرة العربية تشجع على موجات الهجرة ، منها ضعف مركز الأقاليم المجاورة لها من حيث الوضع السياسى أو الدفاعى .

كذلك لابد وأن ندخل فى الحسبان أثر العامل الدينى وعامل الغزو والفتح الذى دفع العرب إلى الهجرة إلى البلاد المفتوحة والاستقرار فيها بل والعمل على تكبير حكامات عربية تحكم تلك البلاد ، وتشجيع الخلفاء للقبائل على الهجرة الجماعية إلى تلك البقاع وإقامة حكومات عربية مستقلة فى أجزاء كثيرة من الوطن العربى ، بعيدة عن مركز الخلافة الإسلامية إلى غير ذلك من الاعتبارات التى يضيق بها هذا المجال .

ومن الممكن أن تحدد جغرافياً طرق أو منافذ هجرة القبائل العربية إلى أجزاء الوطن العربى فى العصور التاريخية المتعاقبة ، وخاصة إذا وضعنا موضع الاعتبار موقع شبه الجزيرة العربية فى جنوب غرب آسيا ، وملامستها القارة الإفريقية عن طريق سيناء وقرنها من الساحل الشرقى حيث مضيق باب المندب الذى لا يزيد اتساعه عن ١٦ ميلاً فكانت موجات

الهجرة تتخذ طريقاً شمالياً شرقياً إلى أرض الجزيرة في العراق أو شمالياً غربياً إلى أرض الشام ، ويكفى أن نشير إلى الهجرات التاريخية القديمة التي تتمثل في هجرة الكنعانيين ، والنبطيين ، والقبائل الإسماعيلية ، وهجرات القبائل الجنوبية الذي اضطروا إلى التحرك شمالاً نتيجة لتهدم سد مأرب وكانت هناك منافذ للهجرة العربية عن طريق سيناء متخذة مجموعة الطرق الشمالية التي تصل بين بلاد الشام وإقليم مصر ، أو تلك الطرق الوسطى التي كانت تربط بين بلاد النبط القديمة وشمال بلاد العرب أو تلك الطرق التي كانت تمر بها قوافل الحج إلى مكة والآتية من مصر وشمال أفريقيا والتي تقطع المنطقة الجبلية إلى خليج العقبة وهناك أيضاً مجموعة طرق في شرق أفريقيا ، سلكتها السلالات العربية وتدفقت منها إلى إفريقية عابرة طريق باب المندب ، وبعض هذه الهجرات اتجهت إلى الجنوب حيث استقر في بلاد الصومال والجالا وهاجر بعضها شمالاً إلى سهول أرتريا (الحبشة) واستقر في الإقليم الواقع بين النيل والبحر الأحمر وكثير من العناصر العربية اتجهت نحو النيل ودخلت إلى بلاد النوبة والإقليم المصري عن هذا الطريق كما أن بعضها اتجهت إلى مصر بطريق مباشر سالكاً الصحراء الشرقية من الجنوب إلى الشمال ويذهب بعض علماء الانثروبوجيا ^(١) إلى أن قدماء المصريين يشبهون قبائل البجة المتصلة بالقبائل العربية القديمة ، ويعلمون ذلك بالامتزاج التاريخي بين الشعبين ، وخاصة أن الفراعنة كانوا يستعينون بالبجة في شؤونهم الحربية ، حتى يذهب البعض إلى القول بأن تلك القبائل قد عاونت بني الأول على إخضاع ثورة القبائل الفلسطينية كما عاونت المصريين في طرد الهكسوس .

راجع مقال الدكتور سليمان حزين عن سكان مصر ودراسة تاريخهم الجنسي . المجلة التاريخية المصرية مايو - أكتوبر سنة ١٩٣٨ .

(1) Seligman, The Hamitic Problem in The Anglo-Egyptian Sudan in. J. R. A. I.

(2) Brinton, Cradle of The Semites.

وكذلك كانت بلاد النين مصدرا لهجرات عديدة أثرت تأثيرا كبيرا في التكوين الاثنولوجي لبلاد أعلى النيل الأزرق والعبطرية وبلاد أرتريا وسواحل السودان الشرقية ، وكانت هذه الهجرات أكثر من هجرات الشمال وذلك للوفرة العددية لسكان النين في تلك العصور القديمة ، ولتكلف النينيين بالملاحقة والانتقال وعبور البحر إلى الضفة المقابلة في أفريقيا .

وكثيراً ما كانت تسلك القبائل العربية طريق الهجرة إلى الاقليم المصرى من الشمال الشرقى عبر برزخ السويس ، ثم تتجه جنوباً إلى السودان ، وكان لهذا أثره البالغ في تدعيم الروابط بين شمال وادى النيل وجنوبه من الناحية الاثنولوجية ، سواء في ذلك ماحدث في العصر الفرعونى القديم أو في العصر الرومانى أو في العهد الإسلامى . ويبدو أن هذا الطريق كان هو الممر النريسي أيضاً لقبائل العرب الذين هاجروا إلى شمال إفريقيا في عصور تاريخية متعاقبة .

وأخيراً فإن هناك الطريق^(١) أو المنافذ الليبية للهجرة العربية ، وهى التى تصل السودان الشمالى الغربى بصحراء ليبيا غرب النيل ، وبعض هذه الطرق يصل بين الاقليم المصرى وإقليم برقة ، وبعضها منافذ تصل بين تونس وطرابلس وإقليم فزان الليبي وبعضها يسلك الطريق الصحراوى بين منطقة تبستى وودّاي وهذا الطريق هو الذى اتبعته بعض القبائل الليبية مثل البدايات والجرعان فى هجرتها إلى السودان .

ومهما يكن من أمر هذه المنافذ والمسالك التى تشير إلى وسائل انتقال السكان فى البيئة التى يشغلها الآن الشعب العربى ، فإنها تعكس ، الشخصية الاقليمية للوحدة العربية « *Genius Loci* » التى يعنى بها علماء الجغرافيا البشرية فى دراستهم الديموجرافية ، ونحن نعتدنا بوجه خاص أن تؤكد

للتوسع فى الصلات والهجرات التاريخية للعرب يمكن الرجوع إلى :
مبروك طاف : تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام .

الجانب الايكولوجي الاكويومي العمراني باعتبار أن العالم العربي يمثل منطقة اتصال وامتزاج بين كتل السلالات البشرية الرئيسية ، الأمر الذي أدى إلى اعتباره في نظر كثير من علماء الانثروبولوجيا المصفاة والبوتقة التي تنصهر فيها التنوعات الانثولوجية في مركب متجانس يمثل التكامل اللازم للوحدة المورفولوجية والوحدة الوظيفية من الناحية الديموجرافية ، إذ تتكامل في نطاق العالم العربي الوحدات المتباينة من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والثروات الطبيعية ، فتزيد في غنى الشخصية القومية التي تنعكس في وحدة التكوين الانثولوجي للسكان ، ونحن نقصد بذلك التقارب في العادات والأخلاق والميول والصفات والتآلف في الظروف المادية والأوضاع السياسية والاجتماعية ، والمشاركة الوجدانية ، والثقافية الروحية والشعور القومي المتغلغل في الجماهير العربية فضلا عن الوحدة للغوية .

وقد يدعونا المجال لأن نشر إلى بعض الآراء التي تلقى ضوءا على هذه المسألة من الناحية التاريخية الأنثروبولوجية فهناك مثلا نظرية بلسكريف^(١) الذي ذهب إلى أن الموطن الأصلي للساميين ومنهم العرب هو القارة الإفريقية ، مدعما ذلك بـ وجود تشابه في الملامح ، وفي الخصائص السلالية ، فضلا عن الصلات اللغوية بين الأحباش والبربر والعرب مستندا إلى رأي برنتون^(٢) الذي زعم أن جبال الأطلس هي الموطن للساميين واستخلص فريق آخر من وجود تلك الصلات اللغوية والعلاقات الأنثولوجية التي تلاحظ على سكان تلك المنطقة أن الموطن الأول للساميين هو أفريقيا الشرقية وإن اختلف هذا الفريق في الطريق التي سلكها الساميون في عبورهم إلى آسيا ، فالبعض^(٣) ذهب إلى أن سينا كانت هي المنفذ الفذ والبعض الآخر قرر أن باب المندب كانت

(1) James Breasted : The Origins of Civilisation (Reprinted from the Scientific Monthly Nov. 1919

(2) Brinton, Cradle of civilisations

(3) Maspero ; Dawn of Civilization 1896. p. 357.

الطريق المؤدية إلى اليمن السعيدة ومنها إلى شبه الجزيرة العربية ، وحدد آخرون إرتقاء الحضارة الفرعونية وإزدهارها بأول هجرة جماعية من القبائل التي قذفها شبه الجزيرة العربية وهي الهجرة التي أنشأت أيضاً الحضارة الآشورية والبابلية .

واسنأ هنا بصدد مناقشة هذه النظريات التخمينية التي تعالج نشأة الوحدة الإثنولوجية وإنما الشيء الذي تلتقي عنده كل هذه الآراء أن هناك ثمة أصول مشتركة ، أثارت إنباء هؤلاء الباحثين فحاولوا تفسيرها في ضوء دلالات وقرائن إثنوجرافية وهذه القرائن قديمة قدم التسجيل التاريخي بدليل أن تاريخ هيرودوت قد وردت فيه كلمة « أرابيا ، Arabia » في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، وأصبح هذا الاسم معروفاً بين كتاب اليونان ولم يكتفوا بقصدون به بلاد العرب بحدودها الجغرافية الحالية بل كانوا يقصدون بذلك شبه الجزيرة العربية وشبه جزيرة سيناء وصحراء مصر الشرقية ، وأحياناً جزءاً من شرقي الدلتا (٢) .

ويذكر الدكتور أحمد غنري أن بدو الجزيرة العربية قد دخلوا إلى الإقليم المصري عن طريق الصحراء الشرقية ووصلوا إلى النيل عن الدرب الموصل بين القصير والنيل ، وقد بقيت لهذا الدرب في جميع عصور التاريخ المصري القديم مكانة خاصة وكانوا يسمونه طريق الآلهة ، إشارة إلى مجيء بعض أسلافهم ومعهم آلهتهم عن هذا الطريق . ويضيف إلى ذلك قائلاً أنه ما من شك في أن صلة مصر بالشعوب السامية (ومنها العربية) - في عصر ما قبل التاريخ تركت أثرها في اللغة المصرية القديمة ، سواء في مفرداتها أو أجروميتها هذا وقد حاول كثير من العلماء إبراز أوجه التشابه العديدة التي تربط

محمود كامل : العرب ، تاريخهم بين الوحدة والفرقة ص ٧ - ٨ . معتمداً على محاضرات عن قضية فلسطين لأحمد الشقيري ، والطبعة الثانية من كتاب محمد مبروك نافع تاريخ العرب ، مصر ما قبل الإسلام .

(٢) الدكتور أحمد غنري : اليمن ، ماضيها وحاضرها . ص ١٦ .

بين اللغة المصرية القديمة واللغة السامية ولغة البربر في شمال أفريقيا^(١) ،
 وذهب البعض إلى أن سكان الإقليم المصري قد امتزجت بهم ثلاث جماعات
 بشرية العنصر الجنوبي ذو الرأس الصغيرة والقسمات الرقيقة الذي يقرب من
 الجنس الصومالي وسكان جنوب شبه الجزيرة العربية ، والعنصر السامي الليبي
 في الشمال وعنصر البحر الأبيض المتوسط الذي امتزجت فيه العناصر
 الإغريقية والأرمنية والسامية . ويذهب العلامة سيرجي إلى أن أهل جنوب
 وغرب أوروبا في العصرين الحجري القديم والحديث ينتمون إلى سلالة
 جنس البحر المتوسط كالمصريين الأولين ، وأن جبل طارق كان
 منفذ الهجرة بين القارتين الأوروبية والإفريقية كما كان برزخ السويس ممراً
 للهجرة بين القارة الآسيوية والأفريقية . وآية ذلك أن هذه المنطقة كان
 يجمعها وحدة اثنولوجية ، وكان الليبيون يسكنون شمال أفريقيا متوغلين
 على الضفة الغربية للنيل من البحر الأبيض المتوسط إلى أسوان
 وعلى الضفتين الشرقية والغربية للنيل عند السودان ، وكانت تمتد بلاد
 النوبة التي كان قدماء المصريين يطلقون عليها « كوش » ، وكان النوبيون
 ينتمون إلى العنصر الليبي ، وعلى الضفة الشرقية للنيل في الجنوب كان يسكن
 الموازي وهم البشاريون الحاليون ، وفي جبال وسهول الصحراء العربية كان
 يسكن اليونتو Luntiu وهم بدو ساميون أو بتعبير حديث « أعراب » ،
 أو عرب وكل الدراسات الاثنوجرافية لهذه المنطقة تدل دلالة واضحة
 على وجود صلات وتفاعلات اثنولوجية وثقافية من آسيا وشبه الجزيرة
 العربية ووادي النيل وشمال أفريقيا على نحو ما تعنى به المؤلفات المتخصصة

(١) الدكتور أحمد غري : تاريخ المشرق القديم طبع ضمن دراسات في العالم العربي ص ٨٣ .

لاستجلاء هذه الناحية يمكن الرجوع إلى المراجع الآتية :

H.R. Hall ; The Ancient History of the Near East London 1913.

Elliot Smith, " The Ancient Egyptians.

J. De Morgan, Recherches sur l'Origine de L'Egypte Paris 1896.

A. Moret and Davy, From Tribe to Empire London 1926.

في دراسة نشأة وتاريخ الحضارات لتلك المنطقة ، وملخصها أن الآثار الأركيولوجية تدل على أن سكان وادي النيل وجنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا وجنوب البحر الأبيض المتوسط قد امتزجوا منذ أقدم العصور امتزاجاً ، يكون منهم وحدة اثولوجية أصيلة .

ولكى نوضح بصفة عامة أثر العامل الديموجرافى فى تحقيق هذه الوحدة الاثولوجية ، يجدر بنا أن نشير إلى أهم موجات الهجرة العربية إلى بعض أجزاء الوطن العربى مستعينين فى ذلك ببعض المصادر العربية القديمة ، ومقالات وكتب بعض علماء الديموجرافيا العرب أمثال الدكتور محمد عوض محمد فى الجزء الخاص بالهجرة المصرية إلى الجمهورية السودانية والدكتورين سليمان حزين وعباس عمار فيما يتصل بالهجرة إلى الجمهورية العربية .

أولاً الهجرة العربية إلى الإقليم المصرى .

اتصلت مصر منذ فجر التاريخ بالجزيرة العربية ، وهاجر بدو الجزيرة العربية إلى مصر فى العصور التاريخية المتتابعة فى شكل موجات هجرة متعاقبة وكانت هذه الهجرة تتخذ أحياناً مظهراً سلمياً وأحياناً أخرى تتخذ مظهر القهر والغزو . وسنشير باختصار إلى نماذج لكل من هذه الهجرات التى ذكرتها أمهات الكتب العربية^(١) والمراجع الأجنبية^(٢) .

من المراجع العربية القديمة فى هذا الباب

كتاب المعارف لابن قتيبة

صفة جزيرة العرب للمهدانى جزء أول . طبع لندن سنة ١٨٨٣ م .

الجزء الثانى من كتاب العبر لابن خلدون . طبع بولاق .

صبح الأعشى للقلقشندى . المطبعة الأميرية سنة ١٩١٤ م . الجزء الثالث .

اليان والاعراب عما نزل بأرض مصر من الأعراب القريزى طبع دار المعارف سنة ١٩١٦ م .

Marpero, Dawn of Civilization, 1896.

Champollion, Egypte sous Les Pharaons V. II.

طبع الجزء المتعلق بالجمهورية العربية المتعددة فى الكتاب السنوى الصادر عام ١٩٠٨ .

١ — الهجرات السلبية :

وتلك التي كان يؤخذ فيها رأى الوالى ولا تتم إلا بموافقته وببدل على ذلك صورة من مقابر بن حسن تمثل عدداً من البدو يقدمون لفرعون مصر القرايين ليسمح لهم بالسكنى فى وادى النيل . ومثال ذلك :

(١) هجرات الكنعانيين وسكناهم فى شرق الدلتا (وقد ورد ذكرهم فى التوراة) .

(ب) تلك القبائل التي سمح لها بأن تهاجر من (أيدوميا) لترعى قطعانها وتعيش فى أرض مصر فى عهد منفتاح .

(ح) هجرة الاسماعيليين ، وهذه الهجرة ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، وهم ينسبون إلى جدهم إبراهيم بن آزر . وقد ولد إبراهيم فى بلدة أرام بمملكة بابل ، ولما اعتدى إلى عبادة إله واحد بثأب فكره اضطهده ملك بابل (نمرود بن كنعان) ولكنه صبر على دينه الجديد ثم فر به وسار حتى حط رحاله فى فلسطين . ولما عم القحط وضائق سبل العيش رحل إبراهيم إلى مصر وهبط أرضها . وامتزج إبراهيم بأهل مصر وكان ومن معه طويل الاناة دمث الخلق دؤوباً على العمل فكثرت أمواله ونمت أنعامه وارتفع ذكره ولكن القوم حسدوه ونقموا عليه نعمته ، وسوالت لهم نفوسهم أن يؤذوه ، فأزعم الرحيل إلى فلسطين مرة أخرى ومعه زوجته وخادمتها هاجر الذى أهداها إليها حاكم مصر ، وأخذوا معهم أنعامهم واحتلوا ما يملكون من مال وكان ضمن من رحلوا معه لوط ابن أخيه ، ولكن (لوط) نزل إلى محلة سدوم بعد أن ضاق به المقام مع عمه إبراهيم .

(و) هجرة يعقوب بن اسحق هو وأبناؤه إلى مصر بعد أن اشترى عزيزها يوسف بن يعقوب ، وبعد أن صار يوسف وزيراً لخزانة مصر ، على أثر قحط عم بلاد كنعان وأرض العراق . وعاش يعقوب وأبناؤه ومن

جاء معهم من قبائل البدو في مصر واختلطوا بأهلها وصاهروهم^(١) .

(هـ) هجرة النبطين : وقد أتوا إلى مصر مع الاسماعيليين . والنبط قبائل يرجح الكتاب أن موجاتها الأولى خرجت من بلاد الحجاز ، وأنهم أسسوا دولة مركزها (سالع) في وادي مرسى وعمل النبطيون في التجارة حتى سيطروا على الطريق بين بلاد العرب وبلاد البحر الأبيض وأبغمت مناطق نفوذهم حتى قضى عليهم الرومان سنة ١٠٦ م . وامتد نفوذهم إلى جهات كثيرة فتدل الإبحاث الحديثة القليلة على وصولهم إلى وادي طيلات الذي كان الطريق الطبيعي بين برزخ السويس ووادي النيل .

٢ — هجرات الغزو :

وشهد أقليم مصر هجرات أخرى في شكل غزوات متتابعة ، أيام ضعف حكامها تشدد حيناً وتضعف حيناً آخر لكنها فيما يؤكد المؤرخون كانت مستمرة . فكانت القبائل العربية كثيرة الاغارة على مقاطعات مصر الشرقية وعلى الدلتا بوجه خاص .

ومن الصعب أن نعين بالضبط بدء هذه الغزوات ، إذ لم يدون منها إلا الغزوات الكبيرة كغزوة الهكسوس مثلاً ، ولكن الوثائق والكتابات المصرية تدل على أن تلك الغزوات سابقة لعصر الأسرات ، بل أن بعض الكتاب يرجعون هذه الغزوات إلى الأيام التي كانت تحكم فيها مصر بالآلهة كما تشير الميثولوجية المصرية حتى لقد كان على الآلهة أن يقوا أنفسهم من هؤلاء الغزاة^(٢) .

هذا إلى أن غزو العرب لأقليم مصر أيام التوسع الإسلامي ، لا يختلف

(١) كتاب المعارف لابن قتيبة وقصة يوسف جاءت في القرآن الكريم بصورة مقتضية .

(2) Maspero Dawn of Civilization 1896 . P . 357

(١٤ السكان)

عن الغزوات السابقة غير أنه كان أكثر تنظيماً، كما أنه قد يكون للدافع الديني شيء من الأثر إلى جانب الدافع الإقتصادي الذي لا يمكن إنكاره .

٣ - هجرات البدو من القرون السابقة لبدء المسيحية حتى التوسع الإسلامي :

كانت حدود المناوذ الشمالية والصحراء السورية المهدي الذي تخرج منه القبائل الرعوية العربية وتلك حقيقة متفق عليها فيما يختص بالموجات التي حدثت في العصور التاريخية القديمة . ولكن الموجات المتأخرة جاءت من مناطق أخرى في شبه الجزيرة العربية تكاد تجمع الكتابات العربية على أن مرجع تلك الهجرات وانتشارها شمالاً في بلاد الحجاز ثم إنتقالها إلى المناطق الخصيبة في العراق والشام ووادي النيل ترجع تلك الهجرات إلى سيل العرم الذي هدم سد مارب كما أن الأحوال المناخية في هذه المنطقة الصحراوية من آسيا كانت تميل إلى الجفاف الميلاد حتى ظهور الإسلام وكان ذلك عاملاً هاماً في هجرة القبائل في ذلك الحين ، وخاصة من اليمن . وعلى ذلك فإن تلك الهجرات إنما جاء أغلبها من اليمن .

وأهم تلك القبائل اليمنية هي (قضاعة الحميرية) ، ومن بطونها التي نزلت سيناء وامتدت إلى الفرما من حدود مصر : قنوخ ، سليم ، بلي^(١) .

وكذلك من القبائل الكهلانية (طي* ، بنو مره) والبطون المهمة من (طي*) وأخوتهم هي : جذام ، لحم ، وكانت منازل جذام حول إيلة ، ومن بقاياها الآن بنو عقبة الذين ينسب إليهم عرب الحويطات حول خليج

(١) مكة جزيرة العرب . للمهداني . جزء أول طبع ليدن سنة ١٨٨٣ م . وكذلك الجزء الثاني من كتاب ديوان العبر لابن خلدون طبع بولاق . ص ٢٤٧ : ٢٤٨

العقبة . كما ظل شعب العائذ من جذام يتولى لعدة قرون الطريق من مصر إلى خليج العقبة . وبضاف إلى من تقدم من كهلان : (آل ربيعة ، سنابس ، النعالية ، بنو صخر) وكلها بطون انتشرت في سيناء حتى مجيء الإسلام) . وذكر بعض مؤرخي العرب أن النجدة التي أرسلها عمر بن الخطاب لمساعدة عمرو بن العاص قد قابلت جمعاً هائلاً يقرب من ثلاثة آلاف نسمة ، سألوهم ، فإذا هم عرب غسان ولخم وعاملة .

في الإسلام

وكان من الطبيعي أن يشجع فتح العرب لمصر نزوح كثير من قبائل إليها ، كما نزحت قبائل سيناء إلى الدلتا . وكان حضور الوالي إلى مصر مشجعاً للقبائل التي إليها الوالي ينتمى بأن تهاجر إلى مصر ، ويدل على ذلك تحليل القبائل المختلفة التي هبطت مصر في عهد الولاة المتتابعين . كذلك كان للحوادث التي أدت إلى سقوط بعض الدول الإسلامية أثر في فرار بعض القبائل المهزومة إلى الولايات النائية ومنها إقليم مصر ، وفعلها هاجر إليها كثير من الأمويين فراراً من العباسيين . وظلت القبائل العربية تترى على مصر خلال الخلافات المتباعدة .

في عهد الخلفاء الراشدين : كانت أبرز القبائل هجرة إلى مصر من : جزام ، لحم ، بلي ، وكثير من القبائل ^(١) القرشية .

في عهد الأمويين والعباسيين : كانت معظم القبائل من أمية وبنو العباس ، ومنها قيس عيلان ، سنة ٧٢٧ م في ولاية هشام بن عبد الملك الذي نقل منهم

(١) صبح الأعشى للقلقشندي . المطبعة الأميرية سنة ١٩١٤ م جزء ثالث ص ٣١٩ : ٣٢٣

نحو ثلاثة آلاف^(١) ثم كثر عددهم بعد ذلك ،
وكذلك هجرة (أولاد الكنز من ربيعة) أيام المتوكل على الله
سنة ٧٥٤ م في عدد كبير .

في أيام الفاطميين : أحضر الحكام بعض القبائل من سوريا وأنزلوها
بمصر كي يأمنوا شرهم ويستفيدوا منهم ، ومن ذلك دعوة الخليفة العزيز
أبو منصور لبطون قيس من (بن سليم ، بن هلال) إلى سكنى مصر ،
كذلك فعل الوزير أبو محمد اليازورى سنة ٤٤٢ هـ مع (سنابس) في القرن
الحادى عشر الميلادى وهؤلاء كانوا ينزلون حول غزة ، أتى بهم إلى مصر
وأنزلهم مديرية البحيرة ، بل أتت قبائل أخرى من طيء حتى زاد نفوذهم
في مصر زيادة كبيرة في أواخر الفاطميين .

في أيام الأيوبيين : أحضر صلاح الدين إلى مصر قبائل كثيرة من طيء
(تلمبة) ، وكذلك أنخأا من (جرم) .

هذا ويمكننا أن نذكر بعض مواطن الإستقرار Settlements للقبائل
العربية في الأقليم الجنوبى فى ضوء ما يذكره المقرئزى فى كتابه البيان والتبيين
عما نزل بأرض مصر من الأعراب ، فقد ذكر أن العرب الذين نزلوا مصر
قد أبادهم الدهر ، وجهلت أحوال أكثر أعقابهم ومعنى هذا أن
العرب الذين نزلوا بإقليم مصر ، قد امتزجوا بمن فيها من السكان
وتسربت دماء العرب إليهم ، وإختلطوا بعناصرهم ، وخاصة وأن مصر
— منذ بداية التاريخ — تتلقى أسرابا من الهجرات العربية إليها ، ومع ذلك
فقد ذكر المقرئزى كثيرا من القبائل العربية التى لها منازل خاصة نذكر منها
على سبيل المثال لا الحصر :

(٢) البيان والإعراب عما نزل بأرض مصر من الأعراب . للمقرئزى . طبع دار المعارف
سنة ١٩١٦ م ص ٤٨ .

قبائل سنهس في البحيرة الذين قاموا بثورة ضد الممالك أيام عز الدين أيبك التركاني ، فشتهم الممالك وتفرقوا في مديرية الغربية ونزل بعضهم إلى البرلس .

وقبيلة جذام ، وتنقسم إلى أنخاذ كثيرة منها بنو كحيل وبنو سعد وقد اختلطوا بسكان مصر وأستفر بعضهم ما بين ميت غمر وزققي وفاقوس ، والبعض الآخر في ضواحي الاسكندرية .

وقبيلة بني هلال وهم بطن من بني عامر وكانوا أهل بلاد الصعيد ، ومنهم بنو قرّة في أخميم وبنو رفاعه وبنو عقبة وبنو جميلة في إسنا .
وقبيلة بلي من الشام وتمثل ثلث قبيلة قضاة ولها بطون منها بنو حماد بمنفلوط وبنو حيار بفرشوط .

وقبيلة جهينه وهي من قبائل اليمن ، ولها بطون كثيرة وهي أكثر عرب الصعيد ونزلت في أخميم ، وقبيلة قريش التي ينسب إليها الجعافرة والزبانية وهم بالصعيد الأعلى ، وكذلك بنو صالح وبنو شاكر وبنو إدريس وكانت تسكن من بحري منفلوط إلى سمالوط — وفي أسبوط طائفة تنسب إلى أولاد إسماعيل بن جعفر الصادق بأولاد الأشراف ، وبنو طلحة في طما ، وبنو عروة بن الزبير في البهنسا .

وقبيلة الأنصار من عشائر الأزد ومنهم بنو محمد وبنو عكرمة وديارهم بحري منفلوط وعوف ، وتنتهي في نسبها إلى قيس عيلان ومنها أنخاذ في الفيوم وفي البحيرة ، وفي برقة بل وفي بلاد المغرب .

هذا وكثيراً ما نجد في الأقليم الجنوبي بعض القبائل والعشائر العربية التي مازالت محتفظة بأنماطها الثقافية الأولية التي جاءت بها من موطنها

الأصلية، مثل قبائل المعازة بصحراء مصر الشرقية ، وقبائل أولاد علي بمديرية البحيرة وامتداد حدود مصر الغربية وقبائل الحراشي بالفيوم وقبائل الحيوط بالمطرية ...

ومن الحقائق التاريخية التي يجدر تسجيلها أن كثيراً من أفراد قبائل طنجة وجعفر وجبينة ولحم وخدام وشيبان وطى ومخزوم ، الذين سبق لهم أن استقروا بالديار المصرية قد نزحوا خارج حدودها حينما تغير حكام مصر وأصبحوا من المماليك ، لأنهم لم يقبلوا تسيدهم عليهم وعادوا إما إلى مواطنهم الأصلية أو هاجروا إلى بقاع أخرى من الوطن العربي الكبير ، وكذلك من الملاحظ عامة أن تلك القبائل المهاجرة أو العائدة قد تدرجت في تكيفها للبيئة الاجتماعية وخاصة في استقرارها وتعلمها الزراعة .

وخلاصه ما تقدم أننا إذا حللنا التكوين المورفولوجي والديموجرافي لسكان الأقليم المصري تبين لنا أنه قد انطوى على عناصر عربية مختلفة تعاقبت على فترات تاريخية متتالية ، وأن كل موجة عربية كانت تختلط وتظهر على درجات متفاوتة من المرونة والمطاوعة في تكيفها بالبيئة الاجتماعية المنتقلة إليها .

وقد أثارَت هذه الظاهرة الديموجرافية الأثنولوجية انتباه كثير من الباحثين الأجانب فأجرى بعضهم أبحاثاً تتصل بدراسة الأصل السلالي للأقليم المصري ، وبهنا أن نسجل في هذا المقام دراسات شانتير Chantre وكريج Oraig واليوت سميث E - Smith ، والتي يمكن أن يستخلص منها أن الطابع العربي الأصل لا يزال غالباً بين سكان مديريات الدقهلية والشرقية والقليوبية ، وربما كانت النتائج التي توصلوا إليها مستندة إلى مقارنات بالقبائل العربية الشمالية لأن هناك دراسات اثنولوجية مقابلة تفيد بأن

البقايل العربية اليمنية الجنوبية كانت تمثل رافداً هاماً من روافد الهجرات العربية إلى القارة الأفريقية .

وعلى أى حال ، فإنه مما يجدر تسجيله أن من خصائص الشعب المصرى أنه كان يمتص دائماً الخصائص العنصرية الدخيلة عليه حتى يتمثلها ويغنيها في شخصيته الذاتية ومن هنا استمد أصالته الحضارية التي عرفت من الناحية التاريخية ، بالحضارة الفرعونية ، ولعل ذلك مادعا كثيراً من الكتاب والمؤرخين إلى القول بأن مصر فوعونية وأن حضارتها أفريقية . ولكن يبدو لنا أن مثل هؤلاء الباحثين قد أغفلوا الصلات والعلاقات الثقافية والتكوينات الإثنولوجية التي كانت نتيجة لازمة للهجرات التاريخية ، ومن ثم أسدلوا ستارا من النسيان على جانب هام من جوانب التماسك والتضامن والتكامل الديموجرافى للشعب العربى ، ويقضى موقف الإنصاف العلمى ألا تغفل هذا الواقع التاريخى .

والواقع الذى لا مراء فيه أن مصر — كما سبق — كانت على صلة مستمرة بسكان الجزيرة العربية في فترات التاريخ قديمها وحديثها . بل لقد تدفقت هجرات العرب إلى مصر منذ عهد الأسرات . وليس هذا فى مصر فقط ، فلقد هاجر العرب تبعاً لعوامل مختلفة إلى الحبشة والصومال وأرتريا والسودان . بل إن الميثولوجيا اليمنية تشير إلى أنه إفريقيس بن أبرهة ، رابع التبابعة الذين ينتمون إلى قحطان حمير بن سبأ ، غزا أرض المغرب ، وبنى بها مدينة إفريقية سماها ياسمه ، وأبعد المغار المغار فى تلك البلاد إلى أقاصى العمران ^(١) .

كما أن سكان مصر فى عصور ما قبل التاريخ ، إنما كانوا ينتمون إلى سلالات البحر الأبيض ، وإلى نفس هذا الجنس كانت تنتمى السلالات التى سكنت

(١) مهد العرب . الدكتور عبد الوهاب عزام . دار المعارف سنة ١٩١٦ (ص ١٠٠)

الجزيرة العربية ، منذ استوطن الإنسان تلك البقاع .

فإذا سلمنا بدوام الإتصال بين ساكني مصر ، وسكان الجزيرة العربية وإذا صدقنا بتدفق الهجرات العربية إلى وادي النيل ، في جميع فترات التاريخ ، لمكان من المنطق أن نسلم بصلة الجنس التي تربط بين المصريين والعرب . ولعل أنفق في هذا الرأي مع ما ذهب إليه « كارل بروكلمان » ، في كتابه « أصول قراعد اللغات السامية » . جزء أول ، من أن المصريين هم الفرع السامي الأول الذي انفصل عن شجرة الإنساب العربية السامية قبل كل القبائل الأخرى ، واستوطن في مصر على ضفاف النيل ! وأستدل بروكلمان على ذلك بأدلة كثيرة وتبعه في ذلك كثير من المستشرقين ^(١) .

هـ - وإذا كان هناك من المؤرخين والكتاب من يحاولون أن ينسبوا المصريين إلى سلالات حبشية وعناصر نوبية وليبية من جهة ، ومهاجرين من الساميين والأرمن من جهة أخرى . أو يقولون إن سكان مصر في عصور ما قبل التاريخ كانوا من الجنس الذي يسمونه - خطأ - بالجنس الحامى الإفريقي الأصل ، وأن هذا الجنس الحامى الذي سكن مصر في عصور ما قبل التاريخ يمثل أقدم حضارة في وادي النيل .

فلسكى أرد على هؤلاء وأولئك أقول :

(أ) إن الليبيين والأرمينيين والساميين إنما ينتمون جميعاً إلى سلالات البحر الأبيض الذي ينتمى إليه المصريون . (ب) كما أرجح أن السلالات الحبشية والنوبية تنتمى إلى ما يطلقون عليه - خطأ - الجنس الحامى . (ح) هذا إلى أن الحاميين أنفسهم يرجعون في أصولهم الجنسية إلى عناصر البحر الأبيض أساساً ، بل هناك من الكتاب من يذهب إلى أن تلك العناصر

(١) رأى أدلى به آل سيادة : الدكتور عبد الحليم الجار . أستاذ اللغة العربية المساعد بجامعة القاهرة .

الأفريقية الحامية كانت في وقت ما منتشرة في الجزيرة العربية ، ثم جاءت موجات قرقازية شمالية ودفعتها أمامها وضيق دائرة إنتشارها ، وتمثلت كثيراً من صفاتها ، ويستدل هذا النفر من الكتاب على ذلك بوجود الصفات الإفريقية لاسيما في الشعر ولون البشرة وبمميزات الوجه الواضحة في سكان المناطق الجنوبية من الجزيرة العربية ، وضوحاً يصعب معه في بعض الأحيان التفريق بينهم وبين عناصر من المجموعة الإفريقية مثل قبائل الهندوة وبنى عامر مثلاً^(١) . (و) وإذا جاز لنا أن نصدق أن السلالات الحامية لم تصمد أمام الهجرات القوقازية والسامية النازحة من الشمال ، وأنها أنزاحت أمام تلك الموجات إلى جنوب الجزيرة العربية ، ومن ثم إلى إفريقية ، فمن الجائز أيضاً أن تلك السلالات لم تصمد كذلك أمام السلالات السامية التي نزحت إلى مصر وشمال إفريقية .

٦ - وإذا كان من الصواب أن نقول إن كل مجموعة من الناس تنتمي إلى العنصر الذي أثر فيها أكثر من غيره من العناصر ، فمن الأصوب أن نقول إن تلك الموجات العربية النازحة إلى مصر هي أكثر العناصر تأثيراً في سكان وادي النيل ، خاصة وأنه منذ نهاية عصر الأسرات وفد إلى مصر أقوام ساميون من سورية أو من جزيرة العرب ، واختلط هؤلاء المهاجرون بالسكان الأصليين شيئاً فشيئاً حتى امتزجوا جميعاً .

٧ - ولا جدال في أن هؤلاء العرب المهاجرين إلى مصر قد امتزجوا بالسكان الأصليين ، وأنجبوا سلالة هجينة قادت موكب الحضارة المصرية في عهد الأسرات الأولى .

٨ - هذا إلى نظرية «نقاء الدماء» في جنس من الأجناس قد أصبحت نظرية بالية وغير واقعية ؛ فلا بد للشعوب من عمليات تهجين وامتزاج

(2) Bertran Thomas : Arabia, Felix, London 1932. P. 352.

مستمرة فاختلاط الدماء بين الشعوب كاختلاط الأفكار والثقافات من العوامل التي تجدد حيويتها .

٩ — وخلاصة مايعينى أنه إذا كانت مصر قد استطاعت أن تهضم الغزاة من الفرس واليونان والرومان وأن تحتفظ بحضارتها وكيانها ، فإن الفاتحين العرب قد استطاعوا أن يمتزجوا بالمصريين ، وأن تجرى دماؤهم في عروق المصريين بالنسب والمصاهرة ، وأن ينقلوا إليها تراثهم وحضارتهم وأصبح العرب في مصر وقد تحولوا على مر الزمن إلى مصريين ، كأنهم نبتوا في مصر منذ آلاف السنين ، بل منذ درج هذا الوجود المصرى فى خلقه الأول ، كما أنهم قد طبعوا البلاد بلغتهم ودينهم وثقافتهم ، ومن جهة أخرى استطاعت البيئة المصرية أن تطبع هؤلاء البدو بطابعها ، فتحول البدو زراعا يفلحون الأرض ، ويذرون الحب ، وغدا ساكن الخيمة ساكن بيوت مستقرة ، كما سرت العادات والتقاليد والمأثورات المصرية إلى عادات العرب وتقاليدهم وما جلبوا من مأثورات الصحراء .

١٠ — هذا من حيث الاستقرار فى المدن ، وفى القرى ، وعلى ضفاف النيل . أما العرب الضاربون فى الصحارى والقفار ، فلا يزالون على عهدهم بالصحراء ، فيتمسكون بعاداتهم ، وتقاليدهم ، وطرق معيشتهم الخاصة ، ويحتفظون بأنسابهم . وحرقتهم الرئيسية الرعى والانتجاع ، طلباً للكلاء ، ومواطن الرزق .

١١ — وأعود فأؤكد أن روافد الهجرة العربية إلى إقليم مصر ، قد استقت منابعها الأولى من عنصرين أساسيين هما :

(أ) القبائل العربية الضاربة فى سوريا وبادية الشام .

(ب) قبائل العرب الجنوبيين فى اليمن .

ويدل على ذلك تحليلنا للعناصر العربية الموجودة فى الإقليم الجنوبى .

سوريا العربية :

أول موجة عربية توطنت في الشام وألفت أساسه السلالي الثابت وبعد الطبقة الأولى من إنسان سوريا الحجري ، جاءت من الجنوب أى من الجزيرة العربية وهى الموجة الكنعانية التى توزعت في الشام حوالى سنة (٢٨٠٠ ق . م) . ثم كانت صحراء العرب لعوامل جغرافية نمد عناصر الشام العربية في فترات متناوبة ، مدى ما بين كل فترة وأخرى عشرون تقريبا ، بنجذات عربية تجدد فاعليتها وتحفظ لها سيادتها الجنسية . وهكذا قدم الشام موجات الآراميين (١٥٠٠ ق . م) والآنباط (٥٠٠ ق . م) والغساسنة (في القرن الثانى الميلادى) ثم العرب المسلمون (في القرن السابع الميلادى) . وهذه الموجات هى أساس التجانس السلالي في سوريا .

بيد أن ذلك الأساس العنصرى لم يسلم بسبب قدمه ، وبسبب وضع الشام الجغرافى من الاختلاط المتكرر بغيره من الشعوب التى تعرضت لها هذه البقعة ، ومن هذه الشعوب الحيثيون ، والآشوريون ، والفرس واليونان ، والتتر ، والأكراد ، والآرمن ، والجراكسة . وبالرغم من أن هذه الموجات كانت مكنسحة ، وجعت الشام مرات عديدة إلا أن تأثيرها السلالي لم يكن جوهريا ، بل كان الأساس الجنس العربى هو الذى يظهر ويسيطر في النتيجة ، لا بملاحه وصفاته الجنسية دوما ، ولكن بالأسس الثقافية التى تعتمد عليها في دعم وحدته ، أى باللغة والتقاليد والدين .

وهكذا ذابت بعض هذه العناصر الغربية كالترك والتتر والفرس في المجموع العربى . أما العناصر الأخرى فكانت تقارب العناصر العربية في قوتها ، وهى أقوى من أن تنصهر فيها ، وكان الصراع بينهما يأخذ شكل

إزاحة وحصر ، كالعناصر التي تغمر أطراف سوريا الشمالية منها والساحلية ولكن عدم ذوبان هذه العناصر لم يمنعها من أن تندمج في الثقافة العربية بكليتها .

وأهم من يمثل القبائل العربية من البدو في سوريا : الموالي ، والعقيدات والرولة الذين يعتبرهم بعض الجغرافيين ممثلي الجنس العربي ، أو على الأقل أنقى السلالات العربية العدنانية . ومن بدو سوريا بجانب من تقدم بعض القبائل التي تمثل العرب القحطانيين ، وذلك مثل قبائل طيء .

العناصر العربية في السودان :

تنقسم القبائل العربية في السودان إلى قسمين (أ) الجعليين (عدنانيين) وهؤلاء يرجعون إلى العرب الشماليين في شبه الجزيرة العربية (ب) الجهينيين وهم يمثلون عرب الجنوب .

١ - الجعليون :

وهم أكثر عرب السودان عدداً ، ودخل فيهم جماعات تعيش على النيل شمال الخرطوم إلى دنقلة مثل : الجوابرة ، البديرية (في النوبة) ، والشايقية ، والبطاحين . وكذلك الجرامعة والبديرية في كردفان . ثم الجعليون الذين يعيشون بين العظيرة وخفاق سبلوقة ومركزهم بلدة شندى . ويدعى الجعليون أنهم يتنسبون إلى إبراهيم عليه السلام .

وما يجدر ذكره أن الباب الذي كان مدخلا للقبائل العربية الجعلية هو الباب الشمالي في وسط السودان ، الذي يفضى إلى مجرى النيل ، وهو بلا شك من أقدم الطرق .

وقد دخلت الثقافة العربية في السودان كشأنها في إقليم مصر تماماً ،

بفضل هجرات بعض المجموعات الجعلية العربية المتدفقة في كثرة وغزارة ،
وأشهر هذه المجموعات الجعلية العربية .

القبائل النهرية :

تسكن في منطقة تمتد من خاتق سبلوقة إلى العطبرة . والميرقاب الذين ينتشرون
إلى شمال العطبرة حول بربر والرباطاب : من بربر إلى أبي حمد .
والمناصير : من أبي حمد إلى آخر التلال الرابع ، والشايقية : من الشلال
الرابع إلى أقليم الدبة . والجوابرة (بنى جابر) : في داخل بلاد النوبة
بين الدناقلة والمحس (١) .

الجوامعة : في أواسط كردفان شمال وشرق الأبيض . ، العذيات : إلى
الجنوب من الأبيض . ، والبطاطين : في النصف الشمالي من البطانة :

قبائل جهينة :

تدعى جهينة النسب إلى حمير ، وحمير إحدى القبيلتين السكيريتين التي
إنقسمت إليهما قحطان . وكانت القبائل القحطانية ذات مكان ملحوظ
في الفتوح الإسلامية الأولى ، وكانت بعض الجيوش التي أرسلت إلى إفريقية
يشتمل أكثرها على عرب من الذوحة الثينية ، ولذلك كان لهم من الفضل
في نشر العروبة والإسلام في إفريقية ما لا يقل عما لغيرهم من القبائل
العربية . وقبل الإسلام بقرون عديدة كان الليمنيين إنتشار في القارة
الإفريقية ، وكان لهم ما علم أكثر عما كان لغيرهم من العرب . وهذا كان له
أثر عندما غزت الجيوش العربية القارة الإفريقية (٢) .

وسلكت القبائل الجهينة في دخول السودان من الشرق عبر البحر
الأحمر ، ومن الشمال عن طريق أقليم مصر ، كما أن كثيرا من الجهنيين قد

(١) السودان النماي سكانه وقبائله . دكتور محمد عوض محمد . القاهرة ١٩٥١ . ص ١١٦

(٢) السودان النماي (ص ٢٠٩) .

دخلوا السودان من الشمال الغربى ، من طريق الأربعين أو أى طريق آخر من الصحراء الليبية^(١) .

وتشمل المجموعة الجبهنية العربية قبائل رفاعة والقواسمة .

واللحيون والحويون : والعوامرة والحوالدة : وهى قبائل رعوية صغيرة فى الجزيرة ويمارسون بعض الزراعة . والشكرية . وموطنهم جميعاً فى أقاليم النيل الأزرق والبطانة ، أى النصف الشرقى من السودان . وبنى جرار والزيادة والبزعة والشنابلة والمعاليا . وهذه المجموعة تعيش فى كردفان والمسلمية والبقارة والحاميد والماهرية والكبايش والمغاربة (الذين جاءوا من المغرب) . وهؤلاء منتشرون فى كردفان ودارفور ، وهذه القبائل ليست متساوية فى الأهمية سواء من حيث العدد أو الثروة أو النفوذ .

وهناك أيضاً عرب الهواوير : الذين دخلوا السودان مهاجرين من الأقليم المصرى ملتزمين الجانب الغربى للنيل على دفعات فى أزمنة مختلفة . وينتمى الهواوير من جهة النسب إلى (الهوارة) ويقول القلقشندى إن مواطنهم الأولى كانت تمتد فى مديرية البحيرة من الإسكندرية إلى مسافة بعيدة نحو الغرب والجنوب . وظلت هذه حالهم إلى القرن الرابع عشر ، ثم أرغتهم قبائل أعراب البحيرة على الخروج عن أوطانهم فزلوا أخيم فى جرجا وما حولها ، ثم قوى بأسهم ، وانتشروا فى الوجه القبلى . وامتد نفوذهم إلى مديرية فنا ، ويبدو أنهم قد عانوا بعض ألوان الاضطهاد على يد الحكومة فى عهد الماليك وفى أوائل حكم محمد على مما اضطر كثيراً منهم إلى النزوح جنوباً إلى السودان ، فاشتغل بعضهم بالتجارة فى شمال دارفور .

برقة العربية :

تنقسم القبائل العربية فى برقة إلى قسمين رئيسيين : ١ — القبائل السعدية .

(١) تاريخ العرب فى السودان . لما كباكل . جزء أول (ص ١٣٩ ، ١٢٦) .

٢- قبائل المرابطين . وتعتبر القبائل السعدية أعلى مقاما في السلم الإجتماعى ، وهم الذين يملكون الأرض والماء ، أما المرابطون فيشتغلون في الأرض ويفيدون منها ، إذا سمح لهم بذلك باستثناء بعض الحالات التى يملك فيها المرابطون .

وترجع القبائل العربية السعدية إلى بنى سليم الذين قدموا بركة في القرن الخامس للهجرة (الحادى عشر الميلادى) . بينما يعتبر المرابطون بقية القبائل العربية اليمنية التى جاءت مع الفتح العربى الإسلامى والتى إختلطت بالبربر وعربتهم . وثمة من يعتبر المرابطين أصلا بقية قبائل البربرية التى تعرضت وأسلمت ، وإن كان رأى الأول أولى بالصواب .

١ - القبائل السعدية :

يبلغ عددها تسع قبائل على أساس منازلها من الشرق إلى الغرب وهى :
(١) العبيدات . (ب) عابلة . (ح) الحسا . (و) البراءصة . (و) الدرسة .
(ز) عرفه . (ح) العوافير . (ط) المعاربة .

والقبائل الأربع الأولى تجمعها نسبة واحدة هى (جبارنه) بينما تسمى القبائل الخمس الباقية (حربى) .

٢ - المرابطون :

وبقسمون إلى نوعين : (الأول) يشمل المرابطين الذين يعتبرون فى وضع إجتماعى منحط . (والثانى) المرابطون بالبركة ، وهؤلاء يدعون نسبا شريفا ، وهم لا يشعرون أنهم أقل من السعديين أصالة فى العروبة .

والقبائل العربية فى بركة عامة لا تختلف فى البناء الإجتماعى عن القبيلة العربية حيث كانت ، فهى مكونة من عشائر ويطون وأخاذا . وللقبيلة وطن أرض

تنتقل في حدودها وتمتلكها ، وفي نطاق هذا الوطن تكون أوطان أصغر خاصة بالعشائر والبطون والانخاذ . وأفراد القبيلة متضامنون فيما عليهم من واجبات ومالهم من حقوق . والواجب الأول الذي يشترك فيه الجميع هو الأخذ بالنار أو دفع الدية للمعذور . ورياسة القبيلة لشيخها .

منازل القبائل الرئيسية :

١ — العبيدات : (٣٠,٤٥٠ منهم ٨,٦٠٠ من المرابطين ، وهى أكبر قبيلة فى برقة ، ويمتد وطنها من حدود مصر إلى أواسط التتوء الكبير الذى يدخل البحر المتوسط ، وجزءاً كبيراً من الجبل الأخضر .

٢ — عابلة : وهى قبيلة صغيرة محدودة التنقل ، وهم يقعون بين العبيدات شرقاً ، والبراعصة غرباً ، والحسا شمالاً ، وكثيراً ما يزورون أقاربهم فى مصر (الفيوم) .

٣ — الحسا : (٣,٥١٠ منهم ٥٧٠ من المرابطين) ويقطنون الجزء المتوسط من التتوء المذكور على الساحل حول سوسة .

٤ — البراعصة : (٢١,٠٠٠ منهم ٤,٨٤٠ من المرابطين) والمتعارف بينهم أنهم مراكشيرو الأصل . ويقطنون منطقة متوسطة فى الجبل الأخضر ويقعون بين الدرسه شمالاً والحسا وعابلة فايد شرقاً والعبيد غرباً والصحراء الواسعة جنوباً .

٥ — الدرسه : (١٨,٨٥٠ منهم ٣,٣٤٠ من المرابطين) ويحتلون منطقة من الساحل طولها نحو ١٢٥ كيلو متراً من طليثة إلى الشرق . وهم يحوطون بالحسا والبراعصة ، والعبيد وعرفة .

٦ — العبيد : (٦,٨٥٠ منهم ٦٠٠ من المرابطين ، ويقطنون جبل العبير

وهو قسم من الأمتداد الغربي للجبل الأخضر .

٧ — عرفة : (٩,٣٠٠ منهم ٧٠٠ من المراتبين) وهم ، يقطنون الساحل الممتد من ظلمية إلى طوقره .

٨ — العواقر : (٢٧,٥٠٠ منهم ٦,٣٤٠ من المراتبين) وهم تاني قبائل برقة عدداً ويقطنون المنطقة الممتدة من طوكره إلى دريانة في الجبل الأخضر ، ويشمل وطنهم جزءاً من برقة البيضاء .

٩ — المغاربة : (١٣,٠٠٠ منهم ١,٠٠٠ من المراتبين ، وهؤلاء متوزعون بين برقة وطرابلس ، وأكبر مراكزهم أجدابية .

هذا ويعيش البدو في مضاربهم كما يعيش العرب في بقية الأصقاع العربية ، ولكن الكثيرين منهم ، وخاصة أرباب الثراء لهم بيوت حجرية في القرى والمدن التي يعيشون . وسكان المدن في برقة ، أى سكان بنغازي ودرنة والمرج وسلشون ، وأجدابية والآبار وما إليها لا يختلفون باستثناء الأوربين عن أهل البلاد ؛ فالكثير من سكانها بدو لا يزال اتصالهم بقبائلهم قائماً . وقد يجد المرء في سوسه وغيرها جماعة من أصل كرتي ، ولكنهم قد هضمتم العروبة ، وهم من قبل عرب مسلمون ، فصاروا جزء من أهل البلاد نفسها ، لا يختلفون إلا بأنهم لا قبائل لهم ينتسبون إليها .

الرابطة بين سكان إقليم مصر وليبيا :

١ — يعتبر شمال إفريقية من المناطق التي اكتملت فيها الصفات الجسمانية للجنس البشري ، وقد تم لسكان البحر الأبيض في تلك المنطقة خصائص طبيعية وصفات جثمانية مميزة مثل طول الرأس ، وما اهتموا إليه في نواحي التقدم الحضاري . وينظر الباحثون إلى تلك المنطقة على

أنها وحدة جنسية عند ما يعرضون لنظور السكان من العصر الحجري القديم إلى العصر الحجري الحديث . وفي نهاية العصر الحجري الحديث بدأت الصحراء الليبية كما نعرف اليوم في الظهور وأخذ الجفاف التام يشكل أجزائها ، كما أخذ الإنسان يختفي تماماً من بقاع كثيرة منها ، واضطر السكان إلى الإلتجاء إلى وادى النيل أو الإقامة في الواحات . وقد تم جلاء الإنسان عن الصحراء لعدم تحمله الإقامة فيها حوالى سنة ٣٠٠٠ ق . م واتجهت هجرة السكان نحو الجبل الأخضر في برقة شمالا ، ونحو السودان جنوباً في شرق ، ونحو أقليم مصر شرقاً .

٢ - وهذه الوحدة في الأصل بين المصريين والليبيين تتضح في الرسوم المصرية التي ترجع إلى زمن الامبراطورية وما قبلها ، فبينما نجد أن المصور المصرى كان يظهر الفروق بين المصرى والسورى أو السودانى مثلاً ، نجده يستعمل نفس الرسم والصورة لليبي ، والفرق بين سكان مصر وسكان ليبيا هو أن المجموعة الأولى كونت حياة حضارية استقرارية في وادى النيل ، أما الثانية ، فقد حافظت على حياة الرعى والتنظيم القبلى ، والآثار المصرية ترينا هذه الجماعات وقد ظهر الوشم على أجسامها ، واكتسى رجالها بقماش يغطى أواسط الجسم على نحو ما كان عليه المصريون قبل عهد الأسر المصرية . وكانت القبائل القاطنة في ليبيا شوكة في جانب مصر ، شأنها في ذلك شأن قبائل سيناء ، مما اضطر سكان مصر إلى وضع حاميات قوية في وادى النطرون وغيره من منافذ برقة إلى أقليم مصر لرد هجمات تلك القبائل وأحياناً لغزو أراضيها .

ففي سنة ١٩٧٠ ق . م قام سيزوستريس الأول بحملة كبيرة على برقة ولكن وفاة والده اضطرته إلى العودة . وفي القرن الثالث عشر ق . م حققت برقة وحدة سياسية مؤقتة على يد ديدى ، فأرسل في عام ١٢٢٧ ق . م بعثة حربية إلى مصر بقيادة ابنه وصلت إلى الدلتا الغربية ولكن منفتح رده بعد خسارة فادحة . وفي عام ١١٩٣ ق . م جددت برقة البعث العسكرى ولكن رعمسيس الثالث صد المهاجمين ، ثم زالت وحدة برقة السياسية وعادت إليها حياتها القبلية .

٣ - وفي منتصف القرن السابع ق . م وقعت برقة تحت سيطرة اليونان . ولما خضعت مصر لحكم الاسكندر الأكبر (٣٢١ ق . م) خضعت له برقة أيضاً وجاء وفد منها يقابل الإسكندر في مرسى مطروح ، لما كان مقيماً هناك في طريقه إلى واحة سيوة . ثم أصبحت برقة جزءاً من امبراطورية البطالسة ، وأصابها ما أصاب مصر من اضطراب الأمور وخلاف على العرش . وأصبحت برقة تابعة للإسكندر في كل شيء وفقدت إنتاجها الخاص .

٤ - وفي عهد الرومان خضعت برقة وأقليم مصر لهم ، ولما ظهرت المسيحية في الإقليم المصرى ، انتشرت أيضاً في برقة ؛ بل إن مرقس مؤسس البطريركية المرقسية المصرية كان قيرنى الأصل . وظلت قيرنى التى أسسها اليونان في برقة تابعة ولو إسمياً لبطريك الإسكندرية .

٥ - كانت برقة وطرابلس تابعتين لمصر على أساس التنظيم الذى وضعه إمبراطور بيزنطة (٥٨٢ - ٦٠٢ م) . ولما فتح العرب أقليم مصر ، توجهوا لفتح برقة وطرابلس ، وتم فتح برقة سنة ٢٢ هـ (٦٤٣ م) ومنها اتجه

عمرو بن العاص إلى طرابلس . وبعث فرقة بقيادة عقبة بن نافع لفتح
فزّان ، وأخرى لفتح ودّان ، وهكذا قيل أن انتهى سنة ٢٣هـ (٦٤٤ م)
كانت كل المنطقة المتحدة من حدود مصر إلى زويلة السودان وودّان
وطرابلس قد خضعت كلها للعرب .

وفي الفترة التي مرت بين فتح العرب لمصر وقيام الدولة الفاطمية كانت
ليبيا على الراجح يصيبها ما يصيب مصر . وسنة ٩٧٢ م مرة المعز لدين الله
برقة في طريقه إلى مصر . وفي أثناء حكم الفاطميين كانت برقة تابعة لمصر
بطبيعة الحال .

٦ - غير أن عدد العرب الذين استوطنوا برقة منذ أيام الفتح إلى أوائل القرن
الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) لم يكن كافيا لصيغها كلها بالصيغة
العربية نهائياً ، فظل الغالب على سكانها ، خاصة في الداخل ، العنصر البربري ،
وإن كانت آثار الروم قد زالت عنها تماماً تقريباً .

ولكن الذي أتم لبرقة عروبته هو مجيء قبائل بني سليم وبني هلال
في أواسط القرن الخامس الهجري . عند ما أفلقوا بال الدولة في مصر ،
فشجعهم الخليفة المستنصر على أن يتجهوا غرباً ، وينزعوا تونس من يد
المعز بن باديس ، فسارت جموعهم ، وانتهى المطاف ببني هلال أن استقروا
في طرابلس وتونس ، أما بنو سليم فعادوا إلى برقة واستوطنوها وحافظوا
على ما عندهم من عادات وتقاليد عربية ، وامتزج ما تبقى من البربر بهم ،
حتى صارت برقة عربية ، بحيث لا يبرها في عروبته قطر عربي آخر
بإستثناء الجزيرة العربية نفسها . وقبائل برقة المنحدرة من بني سليم
والتي تعرف بقبائل السعديين ، هي التي تعمر تلك البقاع إلى اليوم .

والواقع أن بني سليم وبني هلال هاجروا أصلاً من نجد - ويعتبر
بني سليم الفرع الأصلي - وقد هاجروا إلى صعيد مصر نتيجة لاضطهاد

حركة القرامطة لهم في بلاد الغرب لاتصلهم بتلك الحرب .

وقد استقروا بصعيد مصر ولكنهم كانوا مصدر قلق لاختلاف طريقته في الحياة عن البلاد التي استقروا فيها ، ولذلك حاول حكام القطاع المصرى التخلص منهم ، ففي أثناء حكم الخليفة الفاطمى المستنصر قد شجعهم وزيره أن يعيدوا غزو طرابلس ونونس من البربر الذين كانوا قد استقلوا بها . فاتجه بنو هلال للغرب نحو طرابلس وتونس حيث يدعى كثير من سكان الأقاليم الآن نسبتهم إليهم . أما بنو سليم فقد استقر معظمهم في إقليم برقة .

وتنتشر قبائل منحدره عن بنى سليم في الوقت الحاضر من مصر إلى تونس . وبالنسبة للقبائل المستقرة في برقة فإنها تنقسم إلى فرعين رئيسيين : الجبارة وحرابي :

(أولاً) قبائل الجبارة هي : عواقر - ومغاربة - وعابد - وعرقه .

(ثانياً) قبائل الحرابي هي : عبيدات وحاسه - فايد - والبراعصة

— والدراسه .

وبما يجدر ذكره أن أولاد على الذين تربطهم بالحرابي صلة قرابة عاشوا في شرق برقة مدة طويلة ولكنهم اضطروا للهجرة إلى مصر تحت ضغط قبائل حرابي الذين تحالفوا ضدهم مع حكام طرابلس ، وهم يحتلون الآن حافة البحر المتوسط من السلوم إلى الإسكندرية .

وفرع آخر من العواقر هو الشرايع الذين هاجروا إلى مصر وأصبحوا فلاحين موزعين على بعض العائلات .

وعندما دخل أولاد على مصر وجدوا قبيلة الهنادى ، تملك جزءاً من أراضيهم الحالية فطردوهم منها ، وهؤلاء الهنادى يسكنون الآن مديرية الشرقية وهم ينتمون إلى بنى سلام إحدى فروع قبائل السعادى . - والهنادى

أخذوا أملاك بني عونة التي اندمجت في فلاحى صعيد مصر .
وفرع ثالث من بني سلام هو الهاجة الذين طردوا من البحيرة وهم
يستقرون الآن في مديرتى الشرقية والغربية بالأقليم المصرى .
ومن جماعة الجبارة كانت قبيلة الغواير وتسكن جزء من السهل الذى تحتله
الآن الحاسة والبراعصة وعابد ، وقد طردوا من بلادهم فى أوائل القرن ١٩
فى نفس الوقت الذى طرد فيه الجوازى تحت ضغط تحالف العواقر والمغاربة
والبراعصة يساعدهم حكام طرابلس وهم يسكنون الآن مديريات الفيوم
وبن سويف والمنيا .

والجوازى كانت تسكن البلد التى يشغلها الآن العواقر وهم يسكنون
الآن قرية من المنيا والفيوم .

وقد قام هناك نضال كبير إثر توزيع قبائل برقة واستمر هذا النضال
حتى سنة ١٨٣٢ بين المغاربة والعواقر يناصرهم الجبارة وعابد وعرفه ضد
القبائل التى كانت تحتل برقة التى تعرف باسم عرب الغرب .

وفى سنة ١٨٥٨ احتلت قبائل حراى والجبارة التى تعتبر الآن صاحبة
النفوذ فى كل أنحاء برقة جزءاً من قلب الإقليم .

وكانت بقية برقة كلها يسكنها عرب الغرب ، والجزء الشرقى من السهل
يقطنه أولاد على .

وكانت الحرب التى تمكن بها أولاد على من طرد غرماتهم ، كانت حراً
وحشية وقاسية ، وكان من نتيجتها أن أولاد بنى سليم — الذين سبق أن
فتحوا برقة والمغرب — بدأوا فى الرجوع إلى الشرق بعد أن امتزجوا
بالدماء البربرية حوالى أواخر القرن ١٧ وطردوا القبائل التى كانت تقطن
صحراء مصر الغربية ، ودفنوا بهم المدائن حيث امتزجوا بالفلاحين وكان كل
واحد يدفع الآخر . فقد طرد الهنادى بنى عونة ، وأولاد على طردوا

الهنادى . وهؤلاء قد طردهم العبيدات وبعض القبائل الحراية الأخرى .
وبالإضافة إلى هجرة قبائل بأكملها من برقة إلى مصر طرد كثير من
الفروع نتيجة للمشاحنات داخل القبيلة .

وبدو برقة يعرفون أقاربهم في مصر ، وحينما تنخفض أسعار الماشية
يتركون ماشيتهم في حيازة أقربائهم في الأقليم المصرى من الجمهورية
العربية المتحدة .

ويقال أن هناك ٣٢ ألف حراى فى مصر عدا البراعصة يسكنون
معظمهم فى الفيوم ، بينما المقيمون فى مصر من قبائل أولاد على ومواليهم
يقدرّون بحوالى ٤٠ ألف .

ومن ثم فنحن نستطيع أن نحدد — فى ضوء ماتقدم — معالم الوحدة
الأنثولوجية بين قبائل برقة وعرب الجمهورية العربية المتحدة .